العرب
الأحد 2021/03/07
السنة 43 العدد 11992

سينما السيرة الذاتية الوجه الآخر للإنسان

يا ترى ما هو مستوى المصداقية في تقديم سينما السيرة الذاتية، تلك الصور والوقائع والتواريخ المخبّأة، تلك الإرادات المجهولة والنزعات الإنسانية التي غلّفها الماضي بغلافه ووضعها في متحف الزمان أو متحف النسيان، ثم جاءت السينما لتعيد الحياة إلى تلك التفاصيل والذكريات والماضي الغامض وتجسّده صورا على الشاشات؟

يتحرج الكثيرون من سينما السيرة الذاتية وخاصة كتّاب السيناريو والمخرجين ممّن زجّوا بأنفسهم في دوّامة هذا النوع الفيلمي الذي يستوجب قدرا كبيرا من الموضوعية والبحث في موازاة عدم الرضا الذي يعبّر عنه المعنيون بتلك السير في مدى مصداقيتها ومطابقتها للواقع ومدى وفائها للحياة الحقيقية للشخصيات.

ابتداء من غاندي للمخرج اتنبورو ومرورا بسيرة تشي للمخرج ستيفن سوديبرغ وفيديل للمخرج ديفيد أتوود، وموت ستالين للمخرج أمانو لا نوتشي، هنالك المزيد من قصص البيوغرافيا التي تحفل بها السينما في إطار بحثها عن القصص الأكثر تفاعلا وتعبيرا عن الواقع واجتذابا للمشاهدين.

في موازاة ذلك هنالك مرآة السيرة الذاتية، وكيف يراها الآخرون من وجهة نظرهم، وإلا كيف سيكون شكل ومحتوى اثنين من أشد الطغاة على مستوى العالم، وهما هتلر وستالين اللذان تسببا في موت ملايين البشر وأبقيا فجيعة إنسانية لا تكاد تنتهي أصداؤها.

فما بين المغامرة والخوف بين زمني هتلر وستالين تقدم المخرجة البولندية المخضرمة أكنيسكا هولاند قصة هي بمثابة مرآة للسيرة الذاتية لصحافي لعب مع الكبار، وذلك في فيلم مستر جونز، والقصة تعود بنا إلى ثلاثينات القرن الماضي ومستر جونز هو صحافي دون الثلاثينات من العمر، وقد عاد مزهوا بنجاحه في إجراء مقابلة صحافية مع هتلر إبّان صعود جمهورية الرايخ الرابع، وهو يعرض استنتاجاته أمام نخبة المجتمع البريطاني بحضور رئيس وزراء بريطانيا آنذاك لويد جورج.

على هذا ستتجسد أمامنا شخصية درامية بامتياز، حيث يقود العالمَ أربعة أقطاب، هم: روزفلت في الولايات المتحدة وجوزيف ستالين في الاتحاد السوفييتي ولويد جورج في بريطانيا ورابعهم أدولف هتلر.

جماليات السيرة الذاتية في هذا الفيلم تقترب من التوثيق، لكنها تتنوّع من خلال البيئات المتنوعة والأحداث، جماليات مشبعة بالحياة ولو بمعناها السلبي والمرتبط بالأزمة. ولكنها على أيّ حال جماليات الذات الحقيقية العابرة للخوف والمصالح باتجاه الإنسان المجرّد والحقيقة الكاملة.

عقود مرت على اغتيال القائد الأميركي والأفريقي الأصل مالكوم إكس، ومع ذلك لا تزال سيرته تجتذب السينمائيين، وهو الذي ولد في مايو 1925، واغتيل سنة 1965، مدافعا عن الحقوق والحريات وضد الفصل العنصري والعرقي ضد السود.

في عام 1992 أنتج فيلم مهم عن سيرته ومن بطولة النجم دينزل واشنطن، ومن إخراج سبايك لي، وهنا قصة أخرى تتعلق بصناعة البطل على الشاشة بناء على معطيات تتعلق بتاريخه الشخصي، بما يستوجبه ذلك من الوفاء للتاريخ من جهة وعدم المبالغة والإسراف في تبجيل الشخصية وهي موازنة إشكالية مركبة تتطلب وعيا بهذا النوع الفيلمي المختلف.

انعكاسات ذلك بدت جليّة في قصص السير الذاتية التي واكبت شخصيات أخرى، واكبت ظهور مالكوم إكس حتى انتهاء حياته، ومن ذلك فيلم سيلما للمخرج آفا دوفرني، بكل الخلاصات المشار إليها آنفا، و"سيلما" هي مدينة تقع على حزام مناطق السود في ولاية ألاباما في الولايات المتحدة، وهي التي انطلقت منها شرارة الثورة للمطالبة بالحقوق المدنية للسود: الحق في التصويت والترشح والمساواة مع البيض، وهي الحركة التي قادها الثائر الكبير وقائد حركة التحرر والحقوق المدنية مارتن لوثر كينغ عام 1965.

ومن هنا سوف نكون مع مقتربات السيرة الذاتية للمناضل التاريخي الشاب مارتن لوثر كينغ، الذي أفنى شبابه وحياته من أجل الوصول بأبناء جلدته إلى الحرية والمساواة والحقوق المدنية كاملة غير منقوصة، وخاض صراعا مريرا لسنوات طوال ضد السلطات، حتى اغتياله في العام 1968، فيما هو ينادي "أنا عندي حلم".

صناعة البطل على الشاشة تبنى على تاريخه الشخصي ومن الضروري الوفاء للتاريخ وعدم المبالغة والإسراف في تبجيله

يركز الفيلم في بنائه السردي على حركة "سيلما" للحقوق المدنية التي صارت علامة فارقة في تاريخ النضال الإنساني، والتحم فيها البيض مع السود، ولاسيما بعد أولى المسيرات الاحتجاجية التي انطلقت في تلك المدينة النائية، والتي انتهت بمقتل وإصابة الكثير من السود الذين شوهدوا على الشاشات وهم يطاردون بالهراوات ويضربون بالرصاص، ويتعرضون لآلة القتل والتعذيب الوحشية التي لا تميّز ما بين كبير وصغير ولا بين امرأة ورجل.

أما إذا عدنا الى هوامش السيرة الذاتية لمارتن لوثر كينغ (الممثل ديفيد أيدلو) في هذا الفيلم ابتداء من تسلم جائزة نوبل للسلام في العام (1964)، أي من النهايات ومرحلة التتويج والنصر، سنعود معه إلى البدايات الأولى لانطلاق شرارة الثورة، لاسيما وهو الرجل المثقف والمحاور والمتحدث والخطيب اللبق، وها نحن نشاهده في مشهد لافت أثناء لقائه برئيس الولايات المتحدة إبان تلك الحقبة، الرئيس ليندون جونسون (الممثل توم ولكنسن).

تلك الوقائع في هوامش السيرة الذاتية تبدو في الواقع هي الأقرب الى ذائقة ووعي المشاهد، والأمر يتعلق بالكيفية التي تتم من خلالها إعادة بناء الأحداث ومواقف الشخصيات في موازنة دقيقة حساسة بما كان من سيرة وما هو كائن من خطاب سينمائي.

* ط .ع

شخصيات ثرية تغري السينمائيين

متعة الاكتشاف الإنساني الأرضي

ما تخبّئه الأرض يفضح الطباع البشريّة

فيلم «الحفر» عندما يتحول باطن الأرض إلى مسرح كبير

يبقى الجانب الأهم من أي عمل سينمائي هو ما تثيره الدراما التي يؤسسها عبر أسئلة عميقة، فتتحول مكوناتها من قصة وشخصيات إلى أضواء كاشفة للخبايا البشرية، كي تعيد إيقاظنا على ما ظننا أننا حسمنا الأمر فيه، وتفتح أمامنا من جديد ذواتنا على خطى شخصياتها المرسومة بدقة السيناريو وحسن توظيف الكاميرا والأحداث، وهذا ما نجده في فيلم "الحفر".

طاهر علوان
كاتب عراقي

اكتشاف ما تخبئه الأرض من أسرار وكنوز لا يختلف كثيرا عمّا تخبئه الذات الإنسانية، فكلاهما يحتاج إلى سبر أغواره والتعرّف على طبقاته الخفية، كما يبين فيلم "الحفر".

لنبدأ بالأرض التي هي تلك المساحة الممتدة للطبيعة بتنوعها في هذا الفيلم من مكان ما بالريف الإنجليزي، ومن هناك سوف تبدأ رحلة الاكتشاف وتبدأ المغامرة في برهة فاصلة ما بين السّلم والحرب.

التنقيب عن الآثار

يبدأ هذا الفيلم للمخرج المتميز سيمون ستون (من مواليد 1984) مع رحلة المنقّب المثابر بازيل براون (الممثل رالف فينيس)، ففيما كانت طبول الحرب العالمية الثانية تقرع كان هو منصرفا عن شواردها، لا يشغله سوى النبش في الأرض بحثا عمّا خلّفه الأسلاف من آثار.

في الريف الإنجليزي وبين ركوب الدراجة الهوائية وعبور أحد الأنهار يتفاعل براون مع طبيعة ممتدة تبدو خالية من ناسها ولا أحد هناك غيره، وتتالى جمالية المشاهد من خلال لقطات عامة على درجة من الإتقان سوف يكثّفها مدير التصوير البارع مايك إيلي بتفاعله الفذّ مع الطبيعة عبر استخدام اللقطات العامة والكبيرة، وفي أوقات وزوايا متعددة شديدة التنوّع.

من هنا سوف نبدأ رحلتنا مع المنقّب براون الذي تستأجره السيدة إيديث (الممثلة كاري موليغان) التي تعيش حياة مرفّهة في فيلا فخمة بالريف الإنجليزي، وتكلّفه بالقيام بالتنقيب عن أيّ آثار يمكن أن تخفيها الأرض الزراعية التي تمتلكها، وخاصة بعض الهضاب الصغيرة.

من هنا سوف نكتشف شخصيتين متوازيتين لا يلبث أن يكون اكتشافهما سببا آخر لتتكشف شخصيات أخرى حتى يتحوّل موقع التنقيب وكأنه مسرح يتم فيه اكتشاف الشخصيات على حقيقتها، الأنانية والغيرة والنفاق والمنافسة والعلاقات العاطفية الهشّة، كلها تتوزع على العديد من الشخصيات.

ولعلّ ميزة هذا الفيلم المأخوذ عن رواية للكاتب جون بريستون أنه يقدّم شخصيّات عدّة وأن أبرزها على الإطلاق تحتاج إلى وقفة جدّية لكي تفهم حقيقة ذاتها ووعيها ومشاعرها ورؤيتها للآخر، ابتداء من السيدة إيديث مرورا بالسيد براون وبالفتاة الشابة بيغي إلى تلك الرابطة المليئة بالشفقة والإنسانية التي تربط براون بزوجته، مع أنه يهجرها أياما لكي يمضي يومه وسط التراب حتى تقول له "لأي سبب أنت تتجوّل وتلعب بالتراب بينما البلاد تستعد للحرب".

متعة الاكتشاف الإنساني – الأرضي تتكامل، فبالنسبة إلى إيديث وبلا كثير من الشرح والكلمات يمثل براون استثناء في حياتها، فهو لحظة غامضة مفعمة بالإصرار والتواضع والنبل، كما أن انشداده إلى الأرض يلفت النظر حتى أنه يقول إن "ليس حفنة من تراب يمكن أن يراها أو يلمسها إلا ويعرف من أي مكان جاءت".

لكنّ انشداده إلى الأرض لن يقطع صلته بالسماء فهو إن كان منذ الصباح الباكر يبدأ صلته بالأرض البكر في التنقيب عن آثار الأولين فإن الليل يعني له التنقيب في مستوى آخر وهو تأمل النجوم والمجرات من خلال تلسكوبه الخاص الذي سوف يجتذب إليه الفتى روبرت.

ولاحظ أن السيدة إيديث تدعو براون دعوة يتيمة على العشاء أرادت من خلالها أن تعبّر عن امتنانها وحسّها العميق والأصداء الغامضة في ذاتها تجاهه، لكنّها دعوة لن تتحقق بسبب قدوم زوجة براون وتدهور صحة إيديث المتواصل.

أسئلة إنسانية

إنسانية إيديث وشفافيتها تكملها شفافية بيغي (الممثلة ليلي جيمس) التي تصبح مهمة التنقيب اليومية سببا لها لكي ترى ما لم تره وتشعر به من قبل، الرحلة مع زوجها إلى هذا المكان كانت بمثابة رحلة إلى الذات والبحث عن إجابات لأسئلة أثبتت اغترابها وتجربة الزواج الفاشلة التي عاشتها، وهناك سوف تتخلص من ذلك الزواج لتعيش قصّة حب نمت بلا ضجيج مع المصوّر روري (الممثل جوني فلين) الذي سرعان ما يلتحق بسلاح الجو مع اندلاع الحرب العالمية الثانية.

أما خلفية كل ذلك فهو ليس إلا منافسة بين أطراف عدّة تريد المتاجرة بما تمّ العثور عليه من تنقيب براون، الذي يكاد كل ما عاناه يذهب سدى بمحاولة شراء الموقع لحساب متاحف متنافسة، ولهذا يقيم أولئك المتنافسون في تلك البقعة ملوّحين بإمكانية الاستعانة بقانون تبعية المكان إلى جلالة الملكة، لكن إيديث لن تتوانى عن الانتصار لبراون وتتوّج جهده بالتقدير.

إذا مضينا في تلك الدراما التي شملت مسارات سردية متعددة كلّ منها أضاف جمالية فذّة على الأحداث فإن هنالك عمقا إنسانيا يتكشف مع وطأة الأزمة، لاسيما أزمة إيديث التي تنازع الموت منذ البداية بسبب مرض يعود إلى طفولتها بسبب إصابتها بالحمى الروماتيزمية التي ضربت صمامات القلب، وهناك ابنها الطفل روبرت الذي عاش مرارة فقدان والده الطيار وها هو يعلن عجزه عن إنقاذ والدته.

ميزة هذا الفيلم المأخوذ عن رواية للكاتب جون بريستون أنه يقدّم شخصيّات مختلفة ويرسم أبعادها بدقة عالية

أما المسار السردي الآخر المرتبط بشخصية براون فهو مختلف تماما، هو ذلك الكائن المتجرّد من كل شيء سوى الإخلاص للمهمة التي أوجدها لنفسه متحدّثا عن عصامية فريدة، إنه علّم نفسه بنفسه وأتقن عدة لغات وتخصص في التنقيب والآثار على الرغم من عدم تمكنه من إكمال دراسته الجامعية، وكأنه يعيد طرح أسئلة الذات الحائرة وحتى في تلك العلاقة البسيطة مع الزوجة، إلا أن أسئلته تبقى شبيهة به تحتمل إجابات عدة.

أزمة سيناريو أم أزمة إنتاج

تثار بين الحين والآخر تساؤلات في أوساط السينمائيين وخاصة عند انعقاد المهرجانات السينمائية، يا ترى ما هي أسباب تراجع الإنتاج السينمائي؟

وهنا تبدأ دورة الجدل المعتادة، أين يمكن أن يلقى باللوم وعلى من؟

بالطبع هنالك من يذهب مباشرة باتجاه "المال"، التمويل والإنتاج، ليقابله من يقول وما قيمة المال أمام تدهور الفكر، وعدم القدرة على تقديم قصص وموضوعات تستحوذ على اهتمام الجمهور وتلامس همومه، وهنا يجري استعراض الكم الهزيل من الأفلام السطحية والهزيلة ذات الطابع التجاري، والتي تدل على التدهور في صناعة كتابة السيناريو ابتداء من العجز عن كتابة سيناريو يحمل قصة متماسكة مؤثرة.

والحاصل أن السجال لا يلبث أن يتصاعد لتتمّ تجزئة إشكالية الإنتاج بحسب وجهات النظر المتعددة التي تذهب بعيدا في الافتراضات والنتائج.

لم يعد السينمائيون يتساءلون عن العجز في إنتاج تجربة سينمائية جديدة ومختلفة عن السائد، مثلما أنتجت التجارب السينمائية الغربية تيارات متتابعة كالواقعية الجديدة والانطباعية والموجة الجديدة والسوريالية وغيرها.

كأن الحلم بتيار جديد ومنهج سردي – سينمائي صار مجرد حلم يقظة وضربا من المثاليات، ما دامت حال السينما هكذا، إنتاجا محدودا للغاية وموضوعات سطحية وهزيلة في الغالب.

ويعلم السينمائيون في موازاة ذلك أن دالّة التحوّل في الرؤية السينمائية ومحاولة تأسيس خط سينمائي جديد قد تبدآن بإنتاج فيلم قصير، لا داعي للاستهانة بذلك، ويمكنك أن تراجع مسيرة العديد من المخرجين المرموقين، فسوف تلحظ البدايات التي أسست لمسارهم من خلال أفلام قصيرة كانت بمثابة المنطلق الذي عبّروا من خلاله عن رؤاهم.

من هنا يمكننا تلخيص الأزمة التي تتم المناورة حولها بين الحين والآخر، إنها أزمة تتداخل فيها مفاصل الإنتاج مقترنة بأزمة فكر وتعبير وتهافت في الموضوعات والأفكار، وصولا إلى مستوى متدن في كتابة القصص السينمائية المتماسكة والمؤثرة والمتقنة التي بالإمكان أن تخلد في الذاكرة وتصبح علامة فارقة ومميزة.

وإذا شئنا بعد ذلك أن نتساءل ما دمنا قد شخصنا واقع الحال فلنتساءل، من أين نبدأ؟ بالإنتاج ونرثي انعدام التمويل أم بتهافت الأفكار وضعف مستوى صانعي الأفكار، كتّاب السيناريو أم لا هذا ولا ذاك بل في ما سيقوله السينمائيون في المهرجان القادم.

* ط .ع